

نظرات الإبراهيمي في الأدب والنقد
قراءته لشعر شوقي نموذجاً
د. رابح بن خوية جامعة برج بوعريريج

الملخص:

يعرض المقال لمجموعة من المبادئ والمنطلقات التي تشكل معالم رؤية واضحة ومحددة ينطلق منها الإمام محمد البشير الإبراهيمي في تقييم الأعمال أو النصوص الأدبية أو الحكم حتى على مؤلفيها، وكل ذلك يكشف عن مفهوم للأدب وللنقد وللأديب ووظيفة كل منهم، قد ترسخ هذا المفهوم في وعي الإبراهيمي واستبان، وقد كان لعقيدة الإبراهيمي ولثقافته الواسعة دور مهم في بناء ذلك المفهوم والتصوّر، وسيقتصر هذا المقال على تناول نموذج واحد من قراءات الإبراهيمي النقدية المجملة للشعر وللشعراء متمثلاً في شعر أحمد شوقي(1868-1932) لأن المقام لا يتسع لعرض كل النماذج.ومن خلال تناول هذا النموذج بالوصف والتحليل نستخلص معالم رؤية الإبراهيمي للأدب وللنقد ووظيفتهما.

Summary:

The article presents a set of principles and perspectives that constitute a clear vision and specific from which Imam Muhammad al-Bashir of the Patriarchs in business valuation, literary or judgment texts even the authors landmarks, all of which reveals the concept of literature and criticism and the writer and function of each of them, you may reinforce this concept in the consciousness of the Ibrahimi and Esteban , was the doctrine of the Ibrahimi wide and culture play an important role in the construction of that concept and perception, and this article will be limited to eating one model of the Ibrahimi readings cash outlined for hair and poets represented in the poetry of Ahmad Shawqi (1868-1932) because the place do not have room to display all models. By taking this model analyzes the draw see Brahim, literature and criticism and function parameters.

عرف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1889م-1965م) في العالم العربي والإسلامي بأنه إمام، عالم عامل، فقيه، مصلح، مرب، سياسي، وزعيم وطني... وغير ذلك من الصفات والنعوت التي تسم شخصية الإبراهيمي الفذة، ومن خلالها نظروا إليه، وجدّوا في دراسة أعماله وبحث آثاره، وقل في أحاديثهم كما في كتاباتهم أن يتعاملوا مع الإبراهيمي بوصفه أديبا، ناقد ولغويا أو على أقل تقدير صاحب إسهامات في الأدب والنقد وفي اللغة.

والحقيقة أن المجال الأدبي هو، كذلك، إحدى المجالات التي ترك فيها الإبراهيمي بصماته المتميزة- صغرت تلك البصمات أو كبرت فذلك شأن آخر- وقد نلمس تلك الإسهامات فيما أشار إليه الباحث عبد الملك بومنجل حين تحدث عن المجالات التي خاض فيها الإبراهيمي ومنها المجال الأدبي، يقول: "يتميز الإبراهيمي بأنه الأديب الرسالي الموهل في الالتزام بقضايا أمته. ولعلّ هذا السبب الرئيسي الذي جعله لا يهتم بقضايا الأدب والنقد، إذ لم نجد في آثاره من الكتابات الأدبية إلا خمسا، سجل فيها آراءه وملاحظاته حول شاعرين إسلاميين معارين له، حبيبين إلى لبه وهما شاعر الشمال الإفريقي محمد العيد آل خليفة كما يلقبه هون والشاعر السوري الوزير عمر بهاء الدين الأميري".⁽¹⁾ والواقع أن آراء الإبراهيمي تتجاوز الموضوعين الذين أشار إليهما الباحث كما سنرى ذلك لاحقا.

ودون أن تغيب عنا حقيقة أن الإبراهيمي لم يكن "أديبا متفرغا لشؤون الأدب، متخصصا في الكتابة والتأليف كما هو الحال عند أغلب أدباء العصر الحديث، إنما كان عالما مصلحا، وداعية مجاهدا، يستخدم الأدب وسيلة لتبليغ

¹- عبد الملك بومنجل: النشر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، العظمة، الجزائر،

دعوته، والوصول إلى مقصده، وأحيانا يستخدم براعته اللغوية أداة للتعبير الجميل دون أدنى تكلف أو إجهاد.⁽¹⁾

لم يقتصر اهتمام الإبراهيمي على مجال دون غيره من المجالات الحركية والعلمية والثقافية والاجتماعية والسياسية والتربوية. فقد حاول أن يلم بكل ثقافة عصره ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن يكرس كل ذلك لخدمة الإسلام الرسالة الخالدة ولخدمة الجزائر الوطن المغتصب آنذاك، ولعل المسؤولية التي أقيت على عاتقه والمهمة التي أنيط بها والمرحلة التاريخية التي عايشها. لعل كل ذلك كان الحافز له على الإحاطة بكل جوانب ثقافة عصره وتأسيس كل ذلك الرصيد المعرفي الموسوعي المعروف عنه.

وفي ضوء ما تقدّم، كانت خطة المقال أن أقف على محورين اثنين المذكورين أدناه:

أولاً: على نماذج من قراءاته النقدية(المجملة)للشعر والشعراء موضحاً آراءه ومذهبه في القراءة، ومجلباً أثر التصور الإسلامي في تلك القراءة، ومبيناً سعة الثقافة وعمق المعرفة النقدية اللتين تميز بها الإبراهيمي من خلال هذه القراءات، وهي القراءات التي تناولت الشاعر المصري أحمد شوقي والشاعر السوري عمر بهاء الدين الأميري والشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة.

ثانياً: على نماذج من النصوص المبلورة لرؤيته للأدب ووظيفته موضحاً آراءه ومبيناً أثر التصور الإسلامي في نظراته الأدبية.

ولأن المساحة المخصصة للمقال لا تتسع لكل ذلك فسأكتفي بالوقوف على قراءة الإبراهيمي لشعر أحمد شوقي مستخلصاً من خلال التحليل بعض مبادئ ومعايير تلك القراءة، ومرجئاً محاور المقال المتبقية إلى فرصة أخرى.

1-مرجعية الإبراهيمي الفكرية:

1-المرجعالسابق نفسه، ص: 34.

إن النظر في إسهامات الإبراهيمي في كل المجالات، وفي مجال الأدب والنقد، خاصة، ولآرائه فيهما وفيما تناول من أعمال، يكشف عن مرجعية الإبراهيمي الفكرية المتمثلة في الإسلام، ذلك التصور الذي ترك أثره فيما كتب. فمن المعلوم أن الإبراهيمي كان عالماً رانياً متمسكاً بدينه، عنه يصدر في كل صغيرة وكبيرة وفي كل حقيرة وجليلة مؤمناً بأن الإسلام قانون شامل لأنواع التدابير المحيطة بمصالح البشر من حرب وسلم، وخوف وأمن، وسياسة وإدارة، وقضاء في الأموال والدماء والجنايات، وفي بناء الأسرة⁽¹⁾.

وموقنا بأن "أصلح نظام لقيادة العالم الإنساني هو الإسلام"⁽²⁾. وأن دواء العالم مما هو فيه هو الإسلام. ومقتنعاً أنه دين وسياسة⁽³⁾. فلا عجب، بعد ذلك أن ينطلق الإبراهيمي من هذه الرؤية الواضحة والقناعة الراسخة فيما يتناول من أعمال ويدبج من أقوال.

2-قراءته للشاعر المصري أحمد شوقي(أمير الشعراء):

أول ما يتصدر به هذا المحور هو قراءته لشعر الشاعر المصري أحمد شوقي، وقد خصه الإبراهيمي بنصيب وافر من الاهتمام مقارنة مع غيره وذلك للمنزلة الأدبية التي أحرزها شوقي بشعره في العالم العربي وقد تربع على عرش إمارة الشعر، ولذلك الاهتمام ميرراته الموضوعية قد أشار إليها الإبراهيمي، كوفرة الإسلامية في نصوص شوقي وبراعته في التعبير الفني الجمالي.

2-اتجاه الإبراهيمي النقدي :

يمكن القول إن الإبراهيمي في قراءته لشوقي كان متأثراً بنزعة المحافظة والنقل، ولم يبتعد في آرائه وأحكامه عما اكتسب من معرفة عميقة ذات صلة

1- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج: 4، دار الغرب الإسلامي،

بيروت، ط: 1، 1997، ص: 67.

2-المصدر نفسه، ج: 4، ص: 68.

3-المصدر نفسه، ج: 4، ص: 170.

بالثقافة السلفية، وما كرسته مدرسة الإحياء من تقاليد وأرسته من مبادئ، فالإبراهيمي يرى أن ثقافة الناقد/الشاعر ينبغي أن تبنى على أساس حفظ النماذج الجيدة من الشعر في مرحلة أولى، ويشكل هذا نوعا من التعليم والتأهيل والتربية الذوقية للناقد والشاعر على السواء.

إن هذا الإطار من المبادئ أو المعايير هي منطلق الإبراهيمي في تقييم وتقويم الأدب، كما واضح في دراسته لشعر شوقي وغيره.

وذلك الإطار النقدي- أو مجموعة المبادئ القرائية التي تستشف وتستنبط من ممارسات الإبراهيمي- يركز على أساسين واضحين:

أ- يعنى الأساس الأول بالمحتوى أو المضمون الذي يقدم الأدب -والشعر خاصة في هذا الموضوع- ومعنى ذلك أن الموضوع يمكن أن يقدم في الأدب من خلال وجهات نظر مختلفة، ويمثل التصور الإسلامي بخصائصه أحد تلك الوجهات، وهذا ما وقف عليه الإبراهيمي في شعر شوقي وصرح به.

فالعملية النقدية-التقييمية والتقديرية-لا تهمل-في نظر الإبراهيمي الجوانب المضمونية من حيث تجسيدها لعقيدة الأديب المسلم والالتزام بها، والالتزام بما يحقق خصوصية خير أمة أخرجت للناس. ولا شك أن هذه النظرة تعكس أثر التصور الإسلامي في فكر وفهم الإبراهيمي لماهية الأدب، من حيث هو فكر وفن.

ب- ويعنى الأساس الثاني بالتعبير أو الشكل الأدبي، ومعنى ذلك أن المضمون وحده لا يصنع أدبا ما لم يصب في شكل تعبير فني جميل يرتقي إلى المستوى الإبداعي للجنس الأدبي بكل تفاصيله وجزئياته وأدواته لغة وأسلوبا وصورا..-بحسب العناصر المؤتثة للجنس الأدبي وأنواعه-.

فالإبراهيمي لم يغفل عن هذا الجانب المهم الذي كانت تجسده لغة الشعر القديم والشعر الحديث الإحيائي المتعلق بالقديم، وذلك يستشف من دراسته للشعر وتوجيهه للشعراء.

ونخلص إلى أن الإبراهيمي كان يتبنى مفهوما للأدب، هو المفهوم الذي يصطلح عليه، اليوم، بالأدب الإسلامي؛ أي: "التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق الكتاب والسنة."⁽¹⁾، أو بعبارة أوضح "التعبير الناشئ عن امتلاء النفس بالمشاعر الإسلامية."⁽²⁾.

فالحقيقة أن للإسلام تصوره الخاص، ومن الطبيعي أن يتخذ التعبير عن الحياة لدى الأديب المسلم لونا خاصا."⁽³⁾ ينأى بحكم أصالته عن أن يكون نسخا أو تقليدا عن آداب الأمم الأخرى أو صورة طبق الأصل لها.

ومن هذا المنظور يخص الإبراهيمي شعر أحمد شوقي بتقدير كبير وإعجاب عظيم يدنو من درجة المغالاة، يقول الإبراهيمي في مقاله (الدين في شعر أحمد شوقي)⁽⁴⁾: "إن لشوقي علي لهما أوجبه على نفسي حين غالبت بقيمته في شعراء العربية غابره وحاضرهم."⁽⁵⁾

وفي هذه المقالة تصادفنا نظرة الإبراهيمي الشاملة الواسعة المتسامحة المنصفة الإنسانية والأخلاقية أيضا، فيوافق شوقي فيما يعرب عنه شعرا من آراء، فالدين في شعر شوقي هو أعم من الإسلام، "فشوقي تغنى بكل دين استحدث خلقا أو ثبت فضيلة إنسانية أو زرع محبة بين الناس، أو أنشأ حضارة أو زاد فيها أو ولد فنا، أو كان إرھاصا بدين أكمل..."⁽⁶⁾

ولا يخفى ما يوليه الإبراهيمي للشعر الذي يحفل بالقيم من أهمية.

1- عبد الله صالح الوشمي: جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي، ص: 60، ص: 60.

2- سيد قطب: في التاريخ فكرة ومنهاج، ص: 28.

3- مأمون فريز جرار: خصائص القصة الإسلامية، ص: 27.

4- مقال (الدين في شعر شوقي) كلمة ألقيت نيابة عنه بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، ونشرت في مجلة الشبان المسلمين عددي مارس وأفريل (1955)

5- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج: 5، ص: 201.

6- المصدر السابق نفسه، ج: 5، ص: 201.

2-1- تعاطف الناقد مع الأديب:

ومن ناحية، يكرّس الإبراهيمي في مقالته لصفة من أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الناقد في تعامله مع الأديب، وهي التعاطف مع الأديب ومع النص، لأن الناقد إزاء تقييم وتقويم تجربة إنسانية وليس إزاء محاكمة، يقول الإبراهيمي متعاطفاً مع الشاعر ومقدراً لعاطفته: "ونفس شوقي ينبوع متدفق بالرحمة والحنان قبل أن تكون ينبوعاً متدفقاً بهذه الروائع من الحكمة والبيان.⁽¹⁾

2-2- ثقافة الناقد/ثقافة الأديب:

يتميز الإبراهيمي بسعة اطلاعه على الآداب القديمة-وهو نموذج لما يجب أن يكون عليه الناقد أو الأديب في فنه-مكنه ذلك من الانتباه إلى ما في شعر شوقي من حضور للشعر القديم ومن تجليات له بشكل أو آخر، وهي الظاهرة الأدبية التي يعرفها نقدنا المعاصر بـ(التناص)، ودون تسمية لها بالسرقة الأدبية أو غير ذلك، يتلطف الإبراهيمي في التعبير عنها بالقول: "وشوقي يلمس في مناحيه الفكرية آراء ومنازع صوفية للقدماء ويكسوها حلا شعورية تذهل بروعتها عن تعرف حقيقة رأيه ويغطي الافتتان بالصور الشعرية على التفكير في أصل الرأيين فضلا عن الفروق والجوامع بينهما، ولشعر شوقي في بعض المواقف إشراق كإشراق البرق، يبهر فيخفى فيه ما يكاد يظهر."⁽²⁾

ويشيد الإبراهيمي بشعرية شوقي ويعجب ببراعته وروعته في توظيف النصوص، فلا ينتبه إلى أصولها ومصادرها إلا صاحب الخبرة.

2-3- تعزيز الناقد لقيم التسامح:

يوافق الإبراهيمي شوقيا في دعوته أهل الأديان إلى التسامح، ويشدد النكير على من يتخذ الأديان أداة للتنازع والاختلاف على أساس أن الأديان

¹-المصدر نفسه، ج:5، ص: 202.

²-المصدر نفسه، ج:5، ص: 202.

كلها لله وإن لم تكن كلها من الله، وما دامت كلها لله فهي رحم جامعة، ومن البر بهذه الرحم والرعاية لهذا النسب أن لا نتعاضد فيها.⁽¹⁾

يرجع الإبراهيمي دعوة التسامح عند شوقي إلى ولائه للدعوة العثمانية، يقول: "الإغراق شوقي في الدعوة إلى التسامح سبب آخر، وهو أن الدعوة العثمانية التي هي ليلاه ومناط هواه، ومعقد رجائه في إعزاز الإسلام كانت راعية للأديان الثلاثة، وتحت لوائها طوائف من اليهود والمسيحيين، فكان يخشى أن تتخذ منهم أوروبا ذريعة للتشويش على هذه الدولة الإسلامية".⁽²⁾

يشيد من ناحية بتمجيد شوقي للإسلام وإقرار بتفوقه وجدارته، يقول:

"أما تمجيد الإسلام فلا نعرف شاعرا عربيا بعد شرف الدين البوصيري دافع عن حقيقة الإسلام كما دافع شوقي، وإذا كان البوصيري نظم لامية الإسلام بعد لاميتي العرب والعجم وقال في دين محمد وكتابه:

الله أكبر إن دين محمد... وكتبه أقوى وأقوم قبيلا

ثم ضرب له ذلك المثال الشرود في قوله:

لا تذكر الكتب السوالف عنده... طلع الصباح فأطفئ القنديلا

فإن شوقي أتى في مدائحه وسائر شعره بالأعاجيب وضرب العشرات من الأمثال الشوارد، وأعاناه على ذلك معارف عصره وعجائب العلم في عصره، وامتداد التاريخ بخيره وشره في ما بين عصر البوصيري وعصره، وتداعي الأمم على المسلمين تداعي الأكلة على القصاع، فكل ذلك أرهف إحساس شوقي وهاج شاعريته وأثار أشجانه، فهب يدافع عن الإسلام ويجهز من شعره الكتاب لا الكتب".⁽³⁾

2-4- التزام شوقي بدينه وقضايا أمته:

1- المصدر السابق نفسه، ج:5، ص:202.

2- المصدر نفسه، ج: 5، ص: 203.

3- المصدر نفسه، ج:5، ص: 204.

يبدو وعي الإبراهيمي بالمفاهيم الشعرية السائدة كعمود الشعر ووحدة القصيدة، وهو يتحدث عن التزام شوقي بدينه وسماحته وعدله وهدايته، فشوقي يهتم بقضايا الإسلام والمسلمين في قصائده حتى وإن خرج عن موضوع القصيدة، يقول: "إن شعر شوقي في الأفق الذي تستقر فيه الحكمة مجاورة للبيان، والذي يشارف السدرة التي لا مطمع إليها لأحد، ولا يخلق إليها ولو بجناح لبد، فلا يستفيد منه إلا الذي يقرأه بالتدبر والاهتمام وتصفية الذهن، وعند ذلك يعلم أية براعة أوتيتها هذا الرجل، وأية قسمة من إشراق الذهن وجبروت العقل رزقها في الحملة التي أعده الله لقيادتها في نصرته هذا الدين. وفي اثناء ذلك تجد الغرائب من عرض سماحة الإسلام وخصائصه، وجمعه بين القوة والرحمة، وبنائه على العدل والإحسان وتجاربه الناجحة في هداية البشر وفي بناء الحضارة وفي غمامة العلم، وفي قيادة العقل، ثم يدس في تضاعيف ذلك دعواته عامة إلى التسامح تجري في النفوس جريان الماء، لأنه يعلم أن قومه مغلوبون على أمرهم لا يقدرّون على الانتصاف لأنفسهم، فهو يقرعهم على ذلك ويدعوهم إلى الاتحاد ورفض غبار القرون والأخذ بأسباب القوة، وإن لهم في كل مكرمة غماما وما عليهم إلا أن يتحدوا، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من هذه الفنون، يخرج إليها من عمود القصيدة ولو كانت في الرثاء أو في الأغراض البعيدة، حتى قال بعض ناقديه: إن شعره خال من وحدة القصيدة." (1)

3- إسلامية نص شوقي:

3-1- التعامل مع النص (الأدب) لا الناص (الأديب):

تجدر الإشارة إلى مبدأ مهم يشير إليه الإبراهيمي في نقد الأدب وقراءة النص حيث ينطلق من النص ويعود إليه، وذلك حين يتكلم عما نسميه (إسلامية

¹-المصدر السابق نفسه، ج:5، ص:204.

نص شوقي) التي تتجلى في حضور المضامين الإسلامية واستدعاء الفضاءات الخاصة بها وتوظيف الشخصيات الإسلامية المعروفة وكذا الأمكنة والأزمنة.

يرى الإبراهيمي أنه ليس من واجب الناقد النظر في شخصية الأديب لتقييم عمله كما يبدو في دراسته لشعر شوقي وإنما التعويل على النص، "والتدين أثر الدين في النفس أو ممارسة شعائره بالجوارح وليس من موضوعنا المحدد البحث عن تدين شوقي بمعنى إقامته لرسوم الدين وشعائره، لأننا في شغل شاغل عن ذلك بهذا الفيض المدرار الذي يفيض به شعر شوقي في التغالي بالإسلام وتاريخه وأمجاده، وبهذا الإيمان القوي بالله وقضائه، وبهذا التصوير لبدائع مصنوعاته، وبهذا التزديد اللذيذ للقرآن والحض على التمسك به، وبهذا التكرار الحلو للمقدسات الإسلامية من ملائكة وأنبياء وصحابة وأماكن وأيام، فيغشى في شعره ذكر الله وجبريل ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى وعمر وخالد ومكة والمدينة وبدر والقدس، وأسماء كثيرة لبناء المجد الإسلامي والعربي يكررها فلا تمل، ويصفها في أماكنها فلا تختل، ويسمها ويصفها بخصائصها، ويجلي موضوع العبرة فيها والقذوة بها، فتتألف من ذلك كله في عامة شعره صور بديعة تأخذ النفس أخذة السحر وتقضي به إلى الاعتبار ثم الاقتداء." (1)

3-2- من مظاهر إسلامية نص شوقي:

وإذا شئنا الحكم على إسلامية الأديب فذلك يكون انطلاقاً من النص لا من أي منطلق آخر بما في ذلك حياة الأديب أو سيرته:

دليل آخر يدعم الاتجاه في إسلامية النص، يرى الإبراهيمي أن احتفاء شوقي في مرثيته ومدائحه بما يتصف به الممدوح أو المرثي من إقامة لدينه والتزام به، وهو حكم يستوي فيه الأفراد والجماعات والدول والدول، "وشيء آخر يدل دلالة واضحة على إيمان شوقي بما يقول في ذلك وهو أن مما يتقل ميزان

¹ - المصدر السابق نفسه، ج: 5، ص: 205.

الممدوح أو المرثي في حكم شوقي أن يكون مقيما لدينه كما يريد الله، حتى الدولة العثمانية لم يفرغ عليها تلك الحل الخالدة إلا لأنها تخدم الإسلام وتؤمل لإعزازه. (1)

والشواهد كثيرة والأمثلة حاضرة من شعره مما ذكره الإبراهيمي تصديقا لرأيه، قول شوقي في رثاء حسين شيرين:

أبدا يراه الله في غلس الدجى...في صحن مسجده وحول كتابه
وقوله في تعزية أهل دمياط(2):

بني دمياط ما شيء بباق...سوى الفرد الذي احتكر البقاء
تعالى الله لا يبقى سواه... إذا وردت بريته الفناء
وأنتم أهل إيمان وتقوى... فهل تلقون بالعتب القضاء
ملأتم من بيوت الله أرضا...ومن داعي البكور لها سماء
ولا تستقبلون الفجر إلا... على قدم الصلاة إذا أضاء

وهناك شواهد كثيرة ينكئ إليها الإبراهيمي في أحكامه، يقول: "وفي هذه القطع منازع لطيفة في فقه الدين تدل على ما لشوقي -رحمه الله- من رسوخ في فهم حقيقة الدين ومعنى التدين." (3)

وهي الحقائق الناصعة التي تحت ضوءها يقيم ويقوم الرجال فضلا عن الأدباء والشعراء..وهي تشكل التصور الذي يكمن وراء الأدب كعقيدة له أو إيديولوجية بالمصطلح المتداول.

4-رسالة الأديب وأديب الرسالة:

إن رسالية الأديب تفرض عليه نوعا من الالتزام، وتكون لكل أعماله غاية يبرجوها، وتخلو من العبثية، وتلك من خصائص الأدب الذي يصدر عن

1-المصدر السابق نفسه، ج:5، ص:205.

2-المصدر نفسه، ج:5، ص: 206.

3-المصدر نفسه، ج:5 الصفحة نفسها.

التصور الإسلامي ومن سماته البارزة، وهي الخصائص التي يترك أثرها في قرائه من خلال الإيحاء بها.

ويملك الشعر قدرة على التأثير بإيحاءاته، ومن ثم قدرة على نقل ما يريده الشاعر بكيفية تجد طريقها إلى قلوب المتلقين.

وعلى رأس خصائص الأدب الإسلامي التوحيد، وهو أس التصور الإسلامي الذي يتمثله الأديب ويصدر عنه ويدركه الناقد وينطلق منه، وهو ما يتجلى في كتابات الناقد والشاعر على السواء، يقول الإبراهيمي: "أما توحيد الله والإيمان بقضائه وقدره وغيبه ونشوره فإن دارس شعر شوقي يستفيد منه ما لا يستفيدة من كتب الكلام الجافة بأنواع من الاستدلال الوجداني فتدخل النفوس من أيسر طريق وتتغلغل إلى مكامن اليقين فيها، فتنتهي بها إلى غاية الغايات من الإيمان الصحيح."⁽¹⁾

والإبراهيمي، من هذا المنطلق، لا يغيب عن وعيه ما لوظيفة الأدب من أهمية في التربية وفي نشر الأفكار بطرائقه الأسلوبية ووسائله التعبيرية البيانية والوجدانية والخيالية الخاصة المتميزة.

ومن الواضح أنه لا يلجأ إلى إسقاط أحكام متعسفة على شعر شوقي، وإنما يستنبط ذلك ويستخرجه من شعره ويقدم الشواهد الغنية في هذا المضمار، مثال ذلك قضية (القضاء)، التي يقول شوقي في شأنها:

القضاء معضلة... لم يحلها أحدٌ

كلما نقضت لها... عقدة بدت عقد

أتعبت معالجها... واستراح معتقد

ومثال آخر، يقول شوقي عن البعث والنشر، في تولستوي⁽²⁾:

طوانا الذي يطوي السموات في غد .. وينشر بعد الطي وهو قدير

1-المصدر نفسه، ج:5، ص:206.

2-المصدر السابق نفسه، ج:5، ص:207.

4-1- العقيدة والبراعة الشعرية:

إن تحقيق نوع من التوازن بين المضمون الإسلامي والتعبير الفني هو أحد تجليات مفهوم الأدب الإسلامي التي يلحظها الإبراهيمي في قراءته لشعر شوقي، فيرى في براعة شوقي وإتقانه لفن القول لاسيما في مدائحه النبوية دليلا قويا على قوة عقيدته وحضورها في شعره، ف"من دلائل إيمانه القوي بالله ورسوله ومحبه لهما محبة ملكت شعوره، تلك المدائح النبوية التي أرى أنه تفوق فيها على السابقين الأولين، وبذ فيها السوابق القرح من المجيدين في هذا الباب الذي لم يجد فيه قبله إلا اثنان أو ثلاثة في تاريخ الملة الإسلامية. إن في مدائح شوقي أنواعا من الحكم، وأصنافا من العلم وأمثالا مضروبة ونصائح ومذكرات لا توجد في مدائح غير شوقي".⁽¹⁾ إن ذلك يؤكد على خصوصية شعر شوقي. وفي الاقتباسات المذكورة سابقا دلالة على إحاطة الإبراهيمي علما بمسائل النقد القديم وتذكيرا بمقاييس النقد القديم وكذلك الخصومة التي دارت بين النقاد حول شعر المتنبي وأبي تمام وإشكالية الدين والأدب.

4-2- صفات الناقد:

ويترتب، على ما تقدم مما أشار إليه الإبراهيمي، أن يتجنب الناقد التعصب، وان يعتدل في حكمه، وأن ينتبه إلى أخطائه، وأن يعدل وينصف في تقييمه، ويصراح ولا يجامل.

لقد أشاد الإبراهيمي بجودة شعر شوقي موضوعا وشكلا وبراعته وجمال صناعته وصدق إيمانه وعقيدته، وبيّن في أكثر من موطن أسباب إعجابه بالشاعر وشعره، ولم يبخسه حقه الذي يجب له من التقييم المنصف المعتدل، ومع ذلك لم يغض بصره عن هنات ليست باليسيرة وهفوات ليست بالقليلة ومآخذ معدودة وقع فيها الشاعر وألم بها فتخللت شعره كما تخللت شعر بعض

1-المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

السابقين ناتجة عن الإفراط والتفريط معا، يقول: "يؤخذ على شوقي أنه مع جلالته في الإيمان ومتانة العقيدة يطغى عليه الجبروت الشعري فيقع في هفوات تدخل في باب الإغراق والغلو أو في باب التساهل والاستخفاف، وقد سبقه إلى الوقوع في أمثالها من فحول الشعراء ابن هانئ الأندلسي والمنتبي والرضي من غير إكثار. ولعمري إن بعض ما وقع لشوقي من ذلك يجاوز حدود التأول، لا لأن موقع هذه الأشياء التي تساهل فيها شوقي في باب التوفيقيات، وللتوفيقيات في الإسلام آداب مخصوصة وموارد منصوصة لا يستمع فيها، ولا يشفع فيه العذر والتأويل".⁽¹⁾

ويسمي الإبراهيمي تلك الهفوات بالمبالغات ويذكر منها:

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم...أن تجعلوه كوجهه معبودا

ولوا في الدروس وجوهكم...وإذا فرغتم واعبدوه هجودا

: و

جعلنا مصر ملة ذي الجلال...وآلفنا الصليب على الهلال

: و

مهرجان طوف الهادي به...ومشى بين يديه جبريل

: و

وقفي الهودج فينا ساعة...نتناوب والروح الأمين

وغير هذا في شعره كثير، وإنما لهنات، نرجو أن تكون في مقابل

إحسان شوقي وفي جانب عفو الله هينات⁽²⁾.

5- النقد والاعتراف بقيمة الشاعر:

وقد كان الإبراهيمي صريحا وجريئا في مأخذ آخر على شعر شوقي وفي عتاب شديد، في موضع آخر، دون أن ينسيه ذلك المأخذ الجسيم مكانة شوقي

1-المصدر السابق نفسه، ج:5، ص:207.

2-المصدر السابق نفسه، ج:5، ص: 208.

وشاعريته وقدره في الشعر وفي الأدب العربي، أو يحمله ذلك على نفس كل روائع شعره بجرة قلم، يقول: "ومع تأثر الجزائر الشديد بشعر شوقي وعقيدتها التي لا تتخلخل في شاعريته، ومع اعترافها بأنه أول من هز هذا الشرق العربي ببدائعه وآياته فإن أدباء الجزائر ما زالوا يعتبرون عليه، بل ما زالوا ينقمون عليه مدحه لفرنسا وافتتانه بحضارتها المزيفة وتخطيه الأصول التاريخية التي لا تعترف لفرنسا ببعض ما ينوه به شوقي من فضائلها، فهو يقول:

دم الثوار تعرفه فرنسا...وتعلم أنه نور وحق

جرى في أرضها، فيه حياة...كمنهل السماء وفيه رزق

وحررت الشعوب على قناها...فكيف على قناها تسترق؟

سامحك الله يا شوقي، أي شعب تحرر على قنا فرنسا، فإن كان بعض ذلك فهو من باب الربا الفاحش؛ تأخذ فيه فرنسا أكثر مما تعطي وليس خالصا لوجه الحرية والتحرير".⁽¹⁾

وما يستتج من هذا، وهو ما يذهب إليه الإبراهيمي، وجوب أن يعي الأديب أو الشاعر مسؤوليته، وأن يستشعر مراقبة الله له في القول كما يستشعره في العمل، فما يلفظ من لفظ إلا وهو رهين به، ومسؤول عنه كسؤاله عن ماله ووقته...

ويجسد الإبراهيمي في نقوده المختلفة مثال الناقد الإسلامي الذي ينبغي أن يكون جريئاً في النصح للأديب ومجابهته وتنبهه للأخطاء الجسيمة، وأن لا يلوذ بالصمت.

هكذا نظر الإبراهيمي إلى شعر شوقي من منظوره الإسلامي وقاسه بمقياسه وطرحه بين يدي ثقافته الإسلامية العربية الأصيلة الراسخة، فغربله بغريال إسلامي ومرره في مصفاة العقيدة ليتأمل بعد ذلك الشكل الفني للجنس

1-المصدر نفسه، ج: 5، ص:229.

الذي يحمله وينتمي إليه واللغة التي تنقله وتعبّر عنه ويحاكمه ويحاكمها بالعودة إلى قواعد الفن وضوابط الصنعة وإلى هذا الرصيد الأدبي المتراكم.

إن(الغريلة)في الثقافة والفكر، بصفة عامة، وفي الأدب، بصفة خاصة، هي ميزان انتخاب الصالح والنافع والمفيد سواء في ثقافتنا وأدبنا الإسلاميين أم في الثقافة والأدب الإنساني العام، فالمتقف/الناقد/الأديب(المسلم) يغربل الثقافة/الأدب، فيأخذ منها ويدع، يثبت وينفي، وفي ثقافته وفكره وأدبه-وأقول بعبارة أقتبسها من الإبراهيمي-"ستذوب الأجزاء الغريبة الصالحة في هذا الكل الطبيعي فتصبح جزءا من ماهيته، وستنفي الأجزاء غير الصالحة كما ينفي الجسم الصحيح جرائم المرض".(1)

6- من جوانب نقد الإبراهيمي لشعر شوقي:

تتعدد هذه الجوانب ولكنها لا تخرج عن ثنائية المضمون والشكل.

6-1- في المعجم الشعري:

ينوه الإبراهيمي بما يصفه بالجبروت الشعري، ونصنفه بالشعرية، ويحث على التوسط أو الوسطية وحسن الختام والتأكيد على مواطن الجمال/اللغة، فيفرد لغة الشاعر في شفافيتها وإيحاءاتها وتأثرها بالمعجم الإسلامي وتعبيرها عن سريرة صاحبها بالحكم الآتي:"والذي لا يشك فيه قارئ شوقي أن لغته متأثرة بالدين إلى أبعد غايات التأثير، صادقة في شعورها بوحداية الله وعظمته وكماله، وبالإفتقار إليه والخوف منه".(2)

ومن الواضح أن الإبراهيمي تناول جانبيين هاميين في شعر شوقي، هما المضمون والتعبير، وأسهب وفصل في تناول المضمون لأهميته وخطورته في التعبير عن التصور الذي ينطلق منه الشاعر، ولا يراودنا أدنى شك في كونه التصور الإسلامي، وأوجز وأجمل في تناول التعبير من خلال الإشارة إلى لغة

1-المصدر نفسه، ج:3، ص:502.

2-المصدر نفسه، ج:5، ص:209.

الشاعر وإلى معجمها الإسلامي وقدرتها على الإيحاء والدلالة على انفعال الشاعر وامتلائه بعقيدته.^(*)

وهما دعامتنا وشرطان أساسيتان في ماهية الأدب الإسلامي الذي يرتكز على التصور الإسلامي لله وللإنسان والكون والعالم وعلى التعبير الفني. وواضح أن الإبراهيمي ينطلق من هذا التصور ويعيه جيدا وإن لم يسمه صراحة لأن المنظومة الاصطلاحية المعاصرة للأدب الإسلامي ونقده كانت قيد التأسيس في تلك الحقبة ولم تتبلور بالشكل الكافي وإن كانت تمارس بشكل أو بآخر كما يبدو في ممارسة الإبراهيمي النقدية.

7-منزلة شوقي فينظر الإبراهيمي:

وبناء على تقدير الإبراهيمي لشعر شوقي فقد خصه بعناية لافتة للانتباه، وأنزله منزلة خاصة، حيث قدمه على غيره من شعراء العربية، وتقنن في وصفه؛ فوصفه ب(شاعر الإسلام) وب(شاعر العربية) وب(شاعر الشرق)، ووصفه بالصفات الثلاثة مرة واحدة(شاعر الإسلام والعربية والشرق) في كلمة تعزية(مات شوقي)إثر وفاته، فنعتة بشاعر الإسلام الذي يعتز بمفاخره، ويشدو بمآثره، وينطق بلسانه، ويجول في ميدانه، ويدعو إلى جامعته، ويمشي في ركاب خلافته، وبشاعر العربية الذي تشرب روحها وتملكت هي روحه، فحمى أسلوبها ونغمتها، وعرضها على أهل هذا القرن معربة عنه كما أعربت عما قبله بلغة فصيحة، فحمل لواءها خفاقا في الآفاق، كما توج على شعرائها في الأقطار باستحقاق. وبشاعر الشرق الذي كان يهتز قلبه لهزاته، وتضطرب حياته لاضطراباته، وترتفع آهاته مع آهاته، فيدوي حتى لتتحرك له جبال، ويهلع منه رجال، وتسري كهرباؤه حتى لترتبط بها بعد الشتات أوصال، وتحيا بها بعد الموت آمال.⁽¹⁾

1-المصدر السابق نفسه، ج:1، ص:106.

ونعته في موضع آخر بـ(شاعر العرب)بمناسبة إحياء ذكرى شوقي، يقول: "إني مغتبط لإحيائكم لذكرى شوقي شاعر العرب في وقت هم فيه أحوج ما يكونون إلى صيحاته التي تحرك الخامل وتهز الجامد، وإلى نغماته التي تتعشخ العاملين وتتبه الخاملين".⁽¹⁾

لقد أولى الإبراهيمي شوقيا هذه العناية وانزله هذه المنزلة لمواقفه المشرفة من عقيدته وأمته ولغته.

والملاحظ أن قراءة الإبراهيمي لشعر شوقي لم تكن قراءة عابرة أو مجرد قراءة سطحية تهدف إلى الاستمتاع والتسلية بهذا الشعر، وتنتهي بالانتهاء منه والفرار من قراءته، وإنما كانت قراءة واعية عميقة محيطة باحثة في الأعماق مدركة لكل أبعاده ودلالاته. لقد فحص الإبراهيمي شعر شوقي ووقف من خلاله على كل النصوص السابقة التي ترفده، وأجرى موازات بينه وبين كبار شعراء العربية في القديم ولمس موطن تفوقه عليهم، يقول الإبراهيمي في ذلك: "لقد وصل شوقي بشعره حينما اقتحم به جميع الميادين إلى مرتبة من مراتب الخلد لا يستطيع وصفها إلا هو...ولقد دأب شوقي بتقليد المتنبي في أول أمره فجاراه، وما كبا وما قصر، ثم شآه في التشبيب الصادق والغزل الرقيق، ثم طاوله فطال عليه في وصف الآثار الباقية عن الحضارات الدائرة، وفي التغني بالأمجاد الغابرة لبني جنسه أو بني وطنه، على حين كانت عبقرية المتنبي لا تتجاوز به مدح شخص بحدود، أو شجاعة في وصف حروف وانتصارات قد يكون الغناء فيها لغير الممدوح، ولا تبرز العبقرية إلا في الحكم التي سجلها والأمثال التي سيرها، أما الوصف الذي تتبارى فيه قرائح الشعراء، وتتجارى سوابقهم فيه فليس للمتنبي فيه كبير قيمة إذا استثنينا قصيدته في شعب بوان وقصيدتيه في وصف الحمى وفي وصف الأسد وفي قطع قليلة من شعره".⁽²⁾

1-المصدر نفسه، ج:5، ص:226.

2-المصدر السابق نفسه، ج:5، ص:227.

وهكذا يرى الإبراهيمي أن شوقيا قد تفوق على المتنبّي في التشبيب الصادق والغزل الرقيق وفي الوصف الذي تتبارى فيه قرائح الشعراء، وقد ساق مسوغات هذا الحكم.

ويبدي رأيه في شوقي بصراحة وجرأة ودون مواربة حين يقول: "ورأيي في شوقي معروف في المشرق والمغرب بين خلصائي وخطائي من المتأدبين، فلم أزل-منذ كان لي رأي في الأدب-أغالي بقيمة شوقي في الشعراء السابقين واللاحقين، وربما شاب هذا الرأي مني شيء من الغلو في مقامات الجدل والمفاضلة بين شعراء العربية، وما كنت أتهم نفسي بعصبية لشوقي، ولا كان الناس يتهمونني بتحيز، لأنني كنت قواما على شعر شوقي أستحضره كله وأستظهره جله، حتى ليصدق علي أنني راوية شوقي بالمعنى الذي يعرفه أسلافنا في الرواية، ولقد حفظت الشوقيات القديمة قبل هجرتي الأولى إلى الشرق سنة 1911 ميلادية. ثم أحفظ من شعر شوقي ما جد بعد طبع الشوقيات الأولى، واستوعبت شعره في منفاه بالأندلس حفظا لأول ظهوره في الصحف أو في أجزاء ديوانه بعدما طبعت." (1)

ولم ينته الإبراهيمي إلى هذا الحد من الإعجاب المؤسس والتقدير الموضوعي لشعر شوقي بل دعا الناشئة، هنا في الجزائر، إلى الانتماء بشوقي واحتذاء أساليبه في أول فرصة سنحت، وهي بداية النهضة الأدبية؛ يقول: "وما كادت تلوح النهضة الأدبية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، ويكتب لي أن أكون أحد قادتها حتى كنت أول الداعين دعوة جهيرة إلى الانتماء بشوقي وإلى احتذاء طريقته والسير على نهجه في الأدب العربي، وأول الدالين على روائع شعره. ولما جد جدّ تلك النهضة وتعددت المدارس العربية على يد جمعية العلماء الجزائريين، وقدر لي أن أكون المشرف على توجيهها مكنت لشعر

1-المصدر نفسه، ج:5، ص:228.

شوقي في نفوس الآلاف من الناشئة الجزائرية، فانبنت تلك النهضة من أولها على أدب شوقي وشعره، وفهمته ناشئتنا على وجهه لحكمه وأمثاله ولحسن تصويره ودقة وصفه، ولسهولة مدخله على النفوس، وإن آفا عديدة ممن ارتقوا ولو قليلا في سلم الأدب ليحفظون من غرر شعر شوقي وسوائر أمثاله ما يجلون به كتاباتهم وخطبهم ومجالسهم للمذاكرة، وإن كثيرا من الشعراء الذين أنجبتهم النهضة الجزائرية ليرسمون خطى شوقي ويسيروا على هداها، وتلوح عليهم مخايله وسماته". (1)

ولم يلزم الإبراهيمي الناشئة، يومئذ، على تمثل شعر شوقي والسير على نهجه وطريقته اعتباطا فقد أشار إلى الأسباب الموضوعية التي تتصل بمضامين هذا الشعر الإسلامية المقبولة وبأساليبه البليغة وطرقه العربية الفصيحة من (حكم وأمثال وحسن تصوير ودقة وصف، وسهولة مدخل على النفوس..)، ولعل من العوامل المهمة على تمكين شعر شوقي وأدبه في مقررات وبرامج المدارس ونفوس الناشئة هو شدة ارتباط شوقي بالإسلام وحضارته وآثاره وأخلاقه ومثله ورجاله... وهذا قسم ينضاف إلى جهة المضامين الإسلامية الفكرية والشعورية الوجدانية التي حظي بها شعر شوقي والتي تتماشى والفطرة الإسلامية النقية التي نشأت عليها الناشئة والشباب الجزائري؛ يقول الإبراهيمي: "وأول ما حبب شوقي إلى نفوس ناشئتنا-على طراوة عودهم- هو ما يفيض به شعره من تمجيد للإسلام وبيان لآثاره في النفوس وتغن بمآثره وأمجاده وافتنان في مثله العليا التي قاد بها أتباعه إلى مواطن العزة والسيادة. ولا عجب، فناشئتنا نشأت على الفطرة الإسلامية النقية، وشعر شوقي أبلغ معبر على تلك المعاني العالية، ونهج شارع إلى سبل التأسي والاقتداء". (2)

1-المصدر نفسه، ج:5، ص:228.

2-المصدر السابق نفسه، ج: 5، ص:228.

ولهذا كله، كان موت شوقي بالنسبة للإبراهيمي وللأندية الأدبية الناشئة بالجزائر خسارة فادحة وصدمة قوية، فقد كانت هذه الأندية تأتم بشوقي وتسير على هديه وشعاعه.(1)

وقد كان لشعر شوقي أثر عميق في النهضة والثورة الجزائرية كما يؤكد ذلك الإبراهيمي بقوله:"إن الجزائر الفتية مدينة بجميع فروع نهضتها بل في أصول ثورتها لشوقي، فكم حدونا الشباب بشعره المطرب القوي، ووجهنا ذلك الشعر إلى مكامن الإحساس من نفوسهم، فكان ذلك أحد الأسباب في ثورته الخالدة التي أقضت مضاجع الفرنسيين وأتت بخوارق العادات من الشعب الجزائري".(2)

خاتمة:

إن قراءة الإبراهيمي لشعر شوقي قراءة تلم بعناصر شتى بدءا من الأديب إلى أدبه إلى متلقيه والأثر الذي يتركه في محيطه، ويبدو أنها قراءة تستند إلى مفهوم الأدب الإسلامي ونقده، مستلهمة وظيفية النقد الأدبي وغاياته واللتين تتلخصان-كما حددهما سيد قطب-في: "تقويم العمل الأدبي من الناحية الفنية، وبيان قيمته الموضوعية، وقيمه التعبيرية والشعورية، وتعيين مكانه في خط سير الأدب، وتحديد ما أضافه إلى التراث الأدبي في لغته، وفي العالم الأدبي كله، وقياس مدى تأثيره بالمحيط، وتأثيره فيه، وتصوير سمات صاحبه وخصائصه الشعورية والتعبيرية، وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوينه والعوامل الخارجية كذلك".(3) وهذه المتابعة لقراءة الإبراهيمي لشوقي، بصفة عامة، تكشف أيضا عن اطلاع الإبراهيمي عما كان يدور في مجال

1-المصدر نفسه، ج:5، ص:228.

2-المصدر نفسه، ج:5، ص:229.

3-سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط:8، 1424هـ-

2003م، ص:8.

النقد الأدبي من أفكار واتجاهات سواء ما تعلق بالقديم وهو واضح أو ما تعلق بالحديث.

المصادر والمراجع:

1- أحمد طالب الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج:3، ج:4،، ج:5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: 1، 1997.

2- رابح بن خوية : مقالة في الأدب الإسلامي، دار البدر الساطع للطباعة والنشر، الجزائر، ط:2012،1.

3- سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط:8، 1424هـ-2003م.

4- سيد قطب: في التاريخ فكرة ومنهاج، دار الشروق، القاهرة، ط: 11، 1413هـ-1993م.

5- عبد الملك بومنجل: النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط:1، جوان 2009،

6-- عبد الله صالح الوشمي: جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي، مكتبة الرشد، الرياض، ط:1426،1هـ-2000م.

7-- مأمون فريز جرار: خصائص القصة الإسلامية، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط:1، 1408هـ-1988م

8-محمد ناصر:الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية1925-1975، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط:2، 2006م

